توفيــق

لا أعرف وزارة وفقت إلى إسخاط الشعب وإثارة الحفيظة والموجدة فى نفسه كما وفقت وزارتنا القائمة . فأنت لاتكاد تنظر فى ناحية من نواحى الحياة المصرية إلا رأيت الشعب يسلك طريقا ، والوزارة تسلك طريقا أخرى ، هذا إلى اليمين ، وهذه إلى الشمال ، هذا إلى الشمال ، وهذه إلى الغرب . كانت القاعدة الأساسية التى اتخذتها الوزارة أصلا لحياتها وسيرتها إنما هى أن تضاد أعمال الشعب وميوله وأهواءه ومنافعه ، وكأن الغرض الأساسى الذى وقفت الوزارة جهودها على تحقيقه والوصول إليه إنما هو إحراج الشعب وتسليط السخط والحنق عليه .

وهذه الأيام التى نشهدها تقيم أوضح الأدلة وأجلاها على هذا التناقض الشنيع بين حياة الشعب وحياة الوزارة ، وبين آمال الشعب وآمال الوزارة . ولسنا نذكر جوع الشعب وإسراف الوزارة . ولسنا نذكر تهالك الشعب على الحرية وكلف الوزارة بالبأس والبطش . ولسنا نذكر طموح الشعب إلى الاستقلال وإذعان الوزارة لسلطان الأجنبى ، فقد كثر الحديث فى ذلك وطال حتى لم تبق حاجة إلى تكراره ولا إلى تذكير الناس به ، لأنه أصبح قوام حياتهم فى جميع أوقاتهم ، وإنما نذكر نشاط الشعب فى هذه الأيام ، ونشاط الوزارة فإن فى المقارنة بين هذين النوعين من النشاط عبرة وعظة . الشعب ثائر مضطرب لما يلقى أبناؤه وبناته من كيد المبشرين وعبثهم بالدين وطغيانهم على الأخلاق والأعراض فالشعب يسخط ويشكو ، والشعب يلح فى السخط ويغرق فى الشكوى ، والشعب لا يستريح ولا يريح الصحف كأنه يعتقد أن قد أصبح الأمر إلى الصحف فهى قادرة على أن تجلى المبشرين عن مصر ، وتغلق معاهدهم وملاجئهم وترد عدوانهم على أبناء المسلمين وبناتهم ، وتصد طغيانهم على الدين والأخلاق والأعراض . أما الوزارة فشديدة النشاط مسرفة فيه لاتكاد تقف منه عند حد . وقد استغرق نشاط مدينة القاهرة ومدينة الاسكندرية ، ومدينة بورسعيد وأقطار الدلتا كلها . فإذا سألت

كوكب الشرق فى ١٩ - ٦ - ١٩٣٣ .

عن موضوع هذا النشاط فثق بأنه شيء آخر غير حماية الدين والأخلاق والأعراض . وإذا سألت عن الذين يوجه إليهم هذا النشاط فثق أنهم قوم آخرون غير المبشرين . فالوزارة لا تنشط لحماية الدين والأخلاق والأعراض ، وإنما تنشط لحماية نفسها ، وهى لا تحمى من شر تخافه أو خطر تخشاه ، وإنما تحمى نفسها من أوهام تفزعها فى اليقظة وتروعها فى النوم . والوزارة لا توجه قواها الهائلة إلى المبشرين ، وإنما توجهها إلى الشعب . نعم إلى هذا الشعب الذى يستغيثها ويستعين بها وينتظر منها أن تحميه من عدوان الأجنبى . الوزارة شديدة النشاط فى الاسكندرية لأن رئيس الوفد وصاحبه أقاما فيها أياما ، ثم سافرا منها صباح اليوم ، والوزارة تخاف من رئيس الوفد وصاحبه أينما كانا وحيثما أقاما ، وإلى أى وجهة قصدا ، وفى أى مكان نزلا . والوزارة تجند الجنود وتنشر البنود وتزلزل الأرض لتحول بين الناس وبين الاتصال برئيس الوفد وصاحبه . فأما المبشرون الذين يعتدون على الدين والأخلاق والأعراض فى الاسكندرية فالوزارة عنهم فى مشغل ، ولم لا ؟ أليس الدفاع عن النفس حتى من الوهم والخيال واجبا قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء . فلتوجد الوزارة أولا ولتحم وجودها من الخطر ثم لتفكر بعد ذلك فى وجود الشعب وحمايته !!!

والوزارة شديدة النشاط فى بورسعيد ، قد ملأ جنودها الشوارع وأخذت على الناس كل طريق ، لا لأن مبشرة أجنبية تكيد للدين والأخلاق والأعراض وتتحدى سلطان الدولة وتعطل أحكام القضاء ، بل لأن الأستاذ النقراشى ذهب إلى هذه المدينة يستقبل عضوا من أعضاء الوفد قادما من أوربا .

فالوزارة مشفقة من الأستاذ النقراشى وصاحبه ، تخاف أن يتصل بهما الناس ، أو يلتفوا حولهما ، ولم لا ؟ أليس من الحق عليها أن تدافع عن وجودها أولا ، ثم تفكر بعد ذلك إن سمحت لها الظروف فى حماية الدين والأخلاق والأعراض ، وسلطان الدولة وأحكام القضاء .

أما الدلتا فنشاط الوزارة فيها لا حد له ، قد أجلبت الوزارة عليها بخيلها ورجلها ، ونشرت فيها شيئا يشبه الأحكام العرفية فالجند يحتلون المدن احتلالا ، وهم يقطعون الطرق فيها ومن حولها بما يبنون من عقبات ، وما يقيمون من حواجز وحصون . وهم يحاصرون المحطات ويحيطون بالدور والقطار المسلح مرابط فيما يقال بين محطة سعد زغلول ، ورجال الإدارة لا ينامون الليل ولا يهدأون فى النهار . لماذا ؟ لا لأن المبشرين يكيدون للدين والأخلاق والأعراض ، ولكن لأن رئيس الوفد وصاحبه سينزلان فى

طنطا وسيذهبان منها بالسيارة إلى حيث يزوران أم المصريين ، ولعلهما أن يزورا فى طريقهما بعض الوفديين .

وإذن فحياة الوزارة فى خطر ، والدفاع عن الحياة أول الواجبات وأشدها لزوما ، فلتنفق الجهود ولتحشد الجنود ، ولتنشر البنود ولتضطرب الأرض وليقتنع الشعب بأن الوزارة القائمة حية قوية ، عظيمة الحظ من القوة والحياة !

أما القاهرة فأمرها عجب منذ أيام ، قد شهدت منذ يوم السبت ما نسيته منذ أشهر ، فانتشر فيها الجند وكثر فيها ذهابهم ومجيئهم ، وظهرت فيها قوة الحكومة كاروع ما تكون وكأشد ما تكون ما عرفها الناس ، وفتحت فيها أبواب السجون وصرف فيها رجال الإدارة عن الراحة والاستمتاع بلذة العيش كأنما نحن فى أيام الانتخاب منذ عامين ! فإذا سألت فيم هذا كله ، فالجواب يسير ، وهو أن عمال ثورنيكروفت مصريون ، وأن شركة ثورنيكروفت تريد أن تتبختر سياراتها فى الشوارع وأن الوزارة مضطرة لحماية هذه السيارات ، وإذن فيجب أن تنفق جهودها كلها فى مدينة القاهرة لتمكن هذه الشركة من أن ترسل سياراتها مختالة فى الشوارع ، ويجب أن يحصر هؤلاء العمال فى بيوتهم ، وأن يصرف عنهم ما قد يصل إليهم من إعانة المحسنين لأن شبع هؤلاء العمال لا يخلو من خطر على هذه السيارات .

وكذلك يريد الله أن يظهر التناقض بين حياة الشعب وحياة الوزارة فى أشنع صوره وأبشع مظاهره . شعب يستغيث بالوزارة لتحمى دينه وأخلاقه وأعراضه من عدوان المبشرين فإذا الوزارة تنصب له الحرب ، وتغرى به الجند ، وتحظر عليه الاتصال بمن يحب . جماعة من الشعب يضربون فلا تحميهم الحكومة ولكن تحمى الشركة منهم . وتسرف فى هذه الحماية حتى تسخر الجند وتفتح السجون ، وتمنع الإعانة وتدع هؤلاء المضربين نهبا للجوع .

أفتظن أن من الممكن أن توفق وزارة من الوزارات إلى مثل ما وفقت له هذه الوزارة من إسخاط الشعب وإحراجه وإثارة الحفائظ والضغائن فيه ؟ إن من المضحك المؤلم حقا أن يستعين الشعب بالوزارة فإذا هى تعين عليه . إن من المضحك المؤلم حقا أن يلوذ الشعب بالوزارة فإذا هى تبسط عليه يدها بالقهر والعسف ، ولكن أى غرابة فى ذلك فإن مصالح هذا الشعب المصرى لم توكل حمايتها إلى المستر « كين بويد » وإنما وكلت إلى وزارة تريد قبل كل شىء أن تعيش . فإذا استوثقت من العيش وأطمأنت إلى البقاء فى

مناصب الحكم فكرت بعد ذلك فيما يمكن أن تلهى به هذا الشعب من الأمانى والوعود . وقد أثبتت الحوادث أن إرضاء الأجانب يطيل بقاء الوزارات ويمكن لها فى الأرض ، وأن إرضاء الشعب لا يقدم ولا يؤخر ، فإذا لم توفق الوزارة إلى إرضاء هذا الشعب وموافقة آماله ومثله العليا فقد وفقت إلى ما هو خير من ذلك ، ووفقت إلى إرضاء الأجانب وحسبك بإرضاء الأجانب وسيلة إلى طول البقاء .